جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com
BM-Publisher

الهوية الثمثل والصراع في رواية (يا مريم) لسنان انطون

ا.د. محمد فليح الجبوري*
جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم انسانية

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:
الاستلام: 2018/7/1
تاريخ التعديل : 2018/7/1
قبول النشر: 2018/7/2
متوفر على النت:2018/7/11

الكلمات المفتاحية :
الصراع
الهوية
سنان انطون

الملخص

يُعدُّ موضوع الهوية من الموضوعات الرئيسة والمهمة في السرد الروائي العراقي المعاصر ، ولم يكن الروائي العراقي المغترب سنان انطون بعيداً عن هموم وطنه الذي تركه مهاجرا إلى الولايات المتحدة الامريكية بعد أحداث 1991، إذ كان هاجس الوطن وما يمر به من أحداث دامية تهدد نسيجه المجتمعي يشغل فكره ، فجاءت روايته (يا مريم) التي نُشرت في 2012 تتويجاً لهذا الهم الهوياتي من خلال معالجته لظاهرة هجرة وتهجير المسحيين العراقيين إلى خارج الوطن بعد ظهور المجاميع الارهابية التي عاثت بأبناء الوطن تهجيرا وقتلا ، وقد استطاع الروائي ان يحيط بمجمل الثيمات البانية للثيمة الرئيسة في الرواية والتي يمكن وصفها بالصراع الهوياتي الذي طوح الروائي به يمينا وشمالا لاستنفاذ جل أوجه الصراع التي يمكن أن تتصورها مخيلة المتلقي ، ومن خلال قراءتنا لهذا المنجز بدت لنا بعض النتائج منها :

- إن الثيمة الرئيسة التي قامت عليها رواية (يا مريم) هي معالجة أزمة الهوية الوطنية ، وصعود الهويات الفرعية .
- إن الصراع الهوياتي الذي اظهرته الرواية تعدي الصراع بين الهويات الفرعية الى صراع داخل الهوية الواحدة وهذا دليل على وجود حالة التشظي الهوياتي التي وصل إليها البلد .
- إن توظيف القاص لتاريخ الوجود المسيحي في العراق وعلى لسان كل من يوسف ومها كانت الغاية منه التنبيه لهذا الوجود الذي قد يجهله أو يتجاهله من يحاول اجبار المسيحيين على الهجرة من العراق لدواع دينية .

وظف القاص النخلة بوصفها هوية للوجود العراقي وبوصفها سيمياء المقاومة ، فهي العراق مهما كثر اعداءه ، فالنخلة هي مصدر حياة العراقيين كما كانت مصدر حياة مريم عليها السلام.

© جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2018

المقدمة

مما لاشك فيه أن الظروف التي مر بها العراق بعد أحداث 2003 افرزت ثمة تحولات جوهرية استباحة قهرا المساحة المجتمعية والتي انعكس تأثيرها سلبا وإيجابا على الساحة الثقافية العراقية حضوراً داخل مساحة الوطن وغياباً خارج اسواره المنتهكة سياسيا واجتماعيا وعسكريا ، ولعل من الظواهر التي سجلت حضورها قسراعلى ذائقة المثقف العراقي هو موضوع الهوية الوطنية العراقية وما اصابها من انشطارات عزز بعضها تلك الهوية ومزقها البعض الاخر .

لم يقصر حضور الهوية الوطنية على نوع أدبي دون غيره بل نجد ذلك جلياً في مجمل الأنواع والأجناس الابداعية بشكل عام ، وقد بدى لنا حضور هذه الثيمة في المنجز السردي كان أكثر نصاعة وأبعد تأثيرا ولاسيما في المنجز الروائي ؛ ولعل المساحة الكتابية والفكرية التي يوفرها هذا الجنس من السرد كانت سبباً في بروز هذه الظاهرة فيه ، فضلا عما تمثل الهوية الوطنية من هاجس مُلح وضاغط على حساسية المثقف العراقي ولاسيما أن هذا المثقف استوعب - قبل غيره - وبشكل عملي معاش محنة

* الناشر الرئيسي : E-mail: kmf19682005@yahoo.com

الوطن وهمومه ومآسيه منذ زمن بعيد فعاش يجتر رموزه وعلائمه وتاريخه وحاضره القريب أملاً بأفق أكثر اتساعاً وأبعث نوراً متوسلا ومراهناً على انجازاته وقدرات أبنائه وتلاحمهم في وقت المحن ، ولعل مصداق ذلك تمثل فيما حدث بعد سقوط المدن العراقية بيد الارهابيين في 2014/6/9 وما بعدها إذ هبَّ أبناء الوطن الواحد بجميع انتماءاتهم الدينية والطائفية والقومية لتحرير الانسان والأرض من براثن الارهابيين على الرغم من أن المدن المحتلة كانت تخص مكون معلوم ينتمي عقائدياً الى العقيدة نفسها التي ينتمي إليها الارهابيون فضلا عن وجود الاحتقان الطائفي والسياسي في ذلك الوقت .

لقد أضحى موضوع الهوية من الموضوعات الرئيسة والمهمة في السرد الروائي العراقي ، ولاسيما أن هذا المنجز سجل حضوراً طيباً في المحافل الروائية العربية وحصد جوائزها واحتل مراتبها الأولى مثل جائزة البوكر ، ولم يكن الروائي العراقي المغترب سنان انطون* بعيداً عن هموم وطنه الذي تركه مهاجرا إلى الولايات المتحدة الامريكية بعد أحداث 1991، إذ كان هاجس الوطن وما يمر به من أحداث دامية تهدد نسيجه المجتمعي يشغل فكره ، فجاءت روايته (يا مريم) التي نُشرت في 2012 تتويجاً لهذا الهم الهوياتي من خلال معالجته لظاهرة هجرة المسحيين العراقيين إلى خارج الوطن بعد ظهور المجاميع الارهابية التي عبثت بأبناء الوطن الواحد تهجيرا وقتلا ، ولكي يحصن القاص عمله الروائي هذا من تهمة اللاموضوعية داخل العمل الروائي نفسه جعل الشخصيات الرئيسة التي تقود الحدث الروائي من أبناء الديانة المسحية وهما : (يوسف) و(مها) مع مراعاة فسيفساء المجتمع العراقي بطوائفه وأديانه المتعددة التي سكنت مدينة بغداد منذ زمن بعيد والتي جعل منها القاص مكان الحدث الروائي .

وبما أن الهوية ظاهرة انسانية تعتمد الشعور والإحساس فقد بدا أن نذهب الى التحليل المباشر من دون الرجوع الى أقول النقاد والباحثين معتمدين منهج تحليل الخبرات الشعورية المنهج الظاهرياتي (الفينومينولوجي) الذي لا يعتمد المراجع والدراسات بل يعتمد التحليل الذاتي ؛ لأن الاطار المرجعي في الدراسات الظاهراتية هو الشيء ذاته، هو الموضوع الذي يعتمد على الحدس المباشر([1]) منطلقين من النص (التجربة الذاتية) الى الموضوع ذاته موظفين أدواتنا من حدس وتراكم معرفي سابق في هذا الحقل النقدي .

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا : إن الثيمة الرئيسة في رواية (يامريم) هي الصراع الهوياتي بامتياز، صراع ذاتي بين أبناء الديانة الواحدة وتتمثل هنا بالديانة المسيحية وهذا يشغل جل الحدث الروائي والمساحة الكتابية في الرواية ، وفي الوقت ذاته جعله الروائي صراعاً بين جليين مختلفين زمنياً وثقافياً : جيل (يوسف) الذي يمثل زمن العراق الذي كان والمأمول الذي سيكون من وجهة نظر هذه الشخصية ، وجيل (مها) الذي يمثل زمن التهجير والاستهداف ، زمن الحاضر المؤلم والمستقبل القاتم ، لتكون الرواية سجالاً بين رؤيتين تتحدان في الانتماء بمختلف تشظياته وتختلفان في المواقف ، وصراع آخر غيري مع الآخر المختلف دينياً وإن كان هذا الصراع أقل حضوراً .

اثبات الهوية

ونريد به ما يعرضه الروائي من أحداث تدل على انتماء شخصية ما إلى طائفة ما أو ديانة ما أو ايديولوجية ما . وقد بدت لنا أن ثمة ثلاثة انتماءات في الرواية هي الهوية الدينية والهوية الوطنية والهوية الحزبية ، بيد أن الانتماءين الأول والثاني كانا يحتلان المساحة الأوسع في الرواية أحداثاً وحضوراً كتابياً ؛ لكونهما الثيمة الرئيسة للنص ، أما الانتماء الأخير فقد بدا خاملا لم يشكل حضورا كبيرا على المستوى فضاء النص الكتابي ، إلا أنه أضاء زاوية مهمة بها حاجة ماسة للكشف عنها خدمة للحدث السردي بشكل عام ، فمساحة الاشتغال الكتابي لا تعد فعلاً ملحاً تُحدد بموجبه فقط فعالية الظاهرة في النصوص الابداعية كأن تشغل مساحة كبيرة ، خلافا لغيرها التي تعوّل كثيرا على

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

التكثيف والتركيز ، فالنص الروائي عبارة عن برامج سردية كثيرة تُسهم جميعها في بنائه ، طالت هذه البرامج أم قصرت ، فبعضها يكون تأثيره كبيرا على مسيرة الحدث السردي وإن قصر هذا البرنامج ، وهذا ما نعوّل عليه في تناول الهوية الحزبية في هذه المساحة النقدية .

الهوية الدينية

وهي تلك الهوية التي يدخل تحت خيمتها كل الافراد الذين ينتمون الى دين ما ، فالهوية الاسلامية هي الهوية التي ينتمي إليها كل الافراد الذين يتخذون من الاسلام ديناً بغض النظر عن لغتهم وتاريخهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكان لهذه الهوية الحضور الأبرز في الرواية إذ اجتهد الروائي في التركيز عليها منذ التباشير الأولى لأحداث الرواية كونها جزءا من الثيمة الرئيسة ، فكانت (حنه) الشخصية الأكثر التصاقاً بهذه الهوية بوصفها دينا تحت خيمة الوطن لا بديلا عنه خلافا لـ(مها) التي تعول على انتمائها الديني على حساب الانتماء للوطن ، ولعل من الاستهلالات التي توحي بهذا الانتماء ما جاء على لسان (يوسف) :

(ذهبت الى الكنيسة قبل شهر وطلبت من الكاهن تقديم قداس على راحة نفسها في ذكرى وفاتها ، وتبرعت للكنيسة بمبلغ اضافي)([2]) فالنص يقدم لنا هوية دينية تمثل الديانة المسيحية من خلال حضور مفردات وطقوس الكنيسة والقداس وكل ما يتعلق بطقوس الصلاة على أرواح الموتى بموجب الديانة المسيحية ، ومن مصاديق هذا الانتماء ما جاء في وصف الصورة المعلقة في غرفة حنه (في الصورة المعلقة على الجدار فوق سرير حنه كانت مريم العذراء الممتلئة نعمة تتوشح بالأزرق وهي تحتضن ثمرة بطنها ...وتحلقت الملائكة حولها ترفرف بأجنحة صغيرة) ([3]) فالنص يُظهر تقليدا عراقياً لا يخص المسحيين فقط وإنما أغلب الديانات والطوائف الأخرى ، وهي ظاهرة تعليق الصور واللوحات التي تدلل على انتماءاتهم الدينية ، فالمعنى المجمل الذي يمكن قرأته من هذه اللوحة على انتماء حنة للديانة المسيحية وهذا الأمر يصدق على برنامج سردي آخر(وتحت صورة البابا والبطاركة كانت صورة لها وهي امام صرح الفاتيكان ... كانت دائما تستذكر حجتها هناك... كانت دائما تتحسر على القدس التي زارتها عام 1966 وكانت كلما دار نقاش حول القدس..." اني شوقت ترجع القدس حتى نروح لكنيسة القيامة) ([4]) فالنص يستحضر كل أدوات الانتماء للديانة المسيحية ولعل أبلغها توصيلا هي (صرح الفاتيكان والبابا والبطاركة وكنيسة القيامة) فكل هذه الرموز والمرجعيات تشير إلى الديانة المسيحية ولا نغالي إذا قلنا: إن الرواية قامت على أجواء وطقوس الديانة المسيحية ،ولذا بات من الضروري سرد كل الأحداث التي تدل على هذا الانتماء ولاسيما أن بعضها جاء بوصفها مكملا للأحداث السردية. إن شخصية (حنه) مثلت مدخلا مهما في إثارة فضاء الحدث الروائي فكانت ملاذا ليوسف الذي ذاب في محبة اخته التي كانت له أماً وأختاً وصديقة.

الهوية الوطنية

وتُعرف بأنها مجموعة السمات التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين أفراد مجتمع ما ينتمون إلى وطن من الأوطان والتي تجعلهم يُعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأوطان الأخرى ، وقد تجلى ذلك في أمرين : أولهما اثبات أحقية المسيحين العراقيين بالوجود على أرض العراق والدفاع عن هذا الوجود وذلك باستدعاء التقاليد والطقوس الاجتماعية المشتركة التي من شأنها التدلال على ذلك الحضور ضمن البنية الاجتماعية العراقية ، أما الأمر الآخر فتمثل بأثبات وجودهم التاريخي والمعاصر على حد سواء، ويمثل الأمر الأول في مواقف كثيرة جدا نما فيها الوجود المسيحين في بنية المجتمع العراقي بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية ، فالشخصية المسيحية العراقية لا تكاد تختلف عن غيرها من الشخصيات التي مثلت الديانات والطوائف في العراق ، أما الأمر الثاني فهو الحضور المسيحي في تاريخ العراق القديم ، ويتم استدعاء هذا الأمر من خلال توظيف المضان التاريخية التي وثقت ذلك وعلى لسان ابطال الرواية .

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

لقد اتسم المجتمع العراقي بسمات اجتماعية كثيرة منها التراحم والالفة والمحبة والشعور بمعاناة الآخر وصلة الرحم وحفظ الجار والصدق في المعشر، وهذا الأمر يتصل بطبيعة هذا الشعب وربما بإرثه التاريخي القائم على صدق العواطف والنبل، ولو تابعنا بعض الدراسات التي تجريها بعض المراكز البحثية لوجدنا مصداق ذلك ، وقد جاء اثبات الهوية الوطنية بطرق شتى ، منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء على لسان(حنه) وبعد انقطاع التيار الكهربائي بعد أحداث 1991 عادت الكهرباء قبل يوم من عيد ميلاد صدام فظهر (ببدلة بيضاء ويقطع الكعكة أمام اطفال يرقصون ويغنون له وكأن شيئا لم يكن قالت حنه مخاطبة (يعني رجعت الكهرباء بس علمود نشوف جهرتك ؟) ثم توجهت اليّ (يوسف) متسائلة " يعني هذا ما يستحي هذا هكي يسوي بعد اللي صار بينا ؟ مو عيب؟ الناس ماتت والبلد انخرب وهو يسوي ها بي بيرثدي مثل الزعاطيط ؟ اخلاق سز") [5].

إن الصوت الذي جلجل من هذا البرنامج السردي لم يكن صوتا مسيحياً، انما هو صوت عراقي أخلص لانتمائه الوطني ، فهو صوت المضطهدين في الجنوب كما هو صوت المقهورين في الشمال ، فالمأساة واحدة في بغداد في الموصل في البصرة ، إنه صوت المعاناة ، صوت الضحايا صوت المسحوقين من جراء حماقات الدكتاتورية ، هذا الصوت يحمل الهم العراقي أينما كان . ف(حنه) المسيحية لا تنظر إلى حالها فقط كما هو حال(مها) بل تتألم لما حدث في الجنوب وما حدث في الشمال من ابادات جماعية ، فلا وجود لهوية دينية في هذا النص لأن الهم كان هماً مجتمعيا ؛ ولأن (حنه) كانت جزءً من هذا المجتمع فهي تستشعر معاناته على الرغم من أن بغداد كانت في أحداث 1991 أقل وطأه مما أحدثه الدكتاتور في الجنوب والشمال ، لكن (حنه) كانت على قدر مسؤولياتها الأخلاقية وهي على وعي عال بها، فغاب الدين وحضر الوطن بكل ثقله في سخرية (حنه) من القائد الهمام. ولم يكن (يوسف) أقل تعبيرا عن (حنه) بل كان مرأة صادقة لمثل هذا التوجه الهوياتي ، وهذا ما نجده في برامج سردية كثيرة يتداخل بعضها مع البعض الآخر من موضوعات هذا البحث، ولنقف على حدث سردي يحمل دلالات كثيرة منها الهوية الوطنية وذلك الحدث هو تهجير اليهود من العراق في 1950 ومن هؤلاء صديق (يوسف) (نسيم حزقيل) والحديث في معرض وصف الصورة:

(كان (يوسف) يتوسط نسيم حزقيل وسالم حسين، وقد مد ذراعيه الطويلتين كجناحين فوق كتفيهما ليضمهما بالقرب منه) [6]

فالصورة هي عراق مصغر في أربعينيات القرن الماضي فلا فرق بين المسيحي والمسلم واليهودي في إطار الدولة العراقية ، فالدين لله والوطن للجميع ، فالتسامح والوئام حاضر بقوة في هذه الصورة بل نجد أن والد سالم حسين (توسط ليساعد يوسف في الحصول على أول وظيفة له كمترجم عقود في جمعية التمور العراقية) ([7]) ، فلا موانع بين أبناء الوطن الواحد بل يشترك الجميع بهموم الفرد وفي يوم ما يأتي (نسيم حزقيل) إلى أصدقائه يوسف وسالم ليخبرهم:

(أبويا سجل اسامينا بالتسقيط وراح نروح لاسرائيل " خيم صمت ثقيل بعد أن اخبرهم بالخبر) ([8])

هذا الثالوث المسيحي والمسلم واليهودي يعيش المعاناة وكأن ركناً من البيت العراقي قد هُدم ،ولم تكن الطبيعة بمنأى عن هذا الحدث الجلل فقد استشعرت الأمر ف(لم يسمعوا سوى وقع خطاهم وحفيف السعف وأغصان الاشجار التي حركتها ريح كأنها تودع نسيم) ([9]) .

لم يكن رحيل نسيم حزقيل اليهودي العراقي حدثا عاديا أو عابرا بل كان حدثا كونياً تفاعلت معه الطبيعة ، فلم تكن عائلة نسيم راغبة بالرحيل عن الوطن (عانقاه بحراره أمام بيتهم في البتاوين وادمعت عيناه أثناء الوداع) ([10])

على الرغم من أن الهوية الدينية هي التي يؤخذ إليها (نسيم حزقيل) بوصف اسرائيل وطن لليهود وعلى الرغم من خذلان الوطن لهذا المواطن العراقي إلا أن عائلة نسيم كانت تتمسك بهذه الهوية وتهون على نفسها ما يحدث لليهود في ذلك الوقت:

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

(والد نسيم لم يفكر بها (الهجرة) ، ولا حتى بعد اصدار قانون اسقاط الجنسية عن اليهود عام 1950... كان نسيم يكرر ما يقوله ابوه : إنها غيمة عابرة وانهم سيظلون في العراق فالفرهود أيضا كان مخيفا لكنه أصبح في خبر كان... وبالرغم من بعض حوادث الاعتداء ، إلا أن الأمور ستستقر) ([11]) ، فالوطن يلفظ أبناءه وأبناؤه يتمسكون به ، يتنازلون عن هوياتهم الدينية وهو في المقابل يسقط عنهم الجنسية العراقية وبعد لؤيّ من السنين يكتشف القائمون بالأمر أن تهجير اليهود كان خطأ فادحاً فخسر الوطن من أبنائه ما خسر نتيجة تأمر أرباب السلطة وخيانتهم وخذلانهم لطائفة كبيرة من أبناء الشعب.

لم تكن علاقة (يوسف) المسيحي بـ(سعدون) المسلم علاقة عابرة بل هي علاقة تجللها المحبة ويُأطرها الصدق بيد أنه كان من أقرب اصدقائه ولسنوات طوال تخللتها أحداث اجتماعية أثبتا فيها صدق علاقتهم الاجتماعية ، فقال يوسف يصف علاقته بسعدون:

(كان قد حضر قداس وجنازة حنه ورافق تابوتها إلى المقبرة وساعدني في انزاله إلى القبر... وقرأ سورة الفاتحة مرتين على روح حنه ... لم تكن تلك اول مره يدخل كنيسه فيها في حياته ، لأنه حضر وفاة ميخائيل وحبيبه) ([12]) فحضور سعدون في حياة يوسف كان كبيرا وربما لا يضاهيه النظير الديني نفسه، فالاحترام والأخوة الصادقة وصدق المعشر تلك الخصال التي أشرنا اليها هي ما يترجمها حضور سعدون إلى المحفل العزائي لعائلة يوسف المسيحي وعلى لسان سعدون يصف علاقته بحنه أخت يوسف:

(إيْ ، الله يخليك ، والله مثل اختي ، الله يرحمها) ([13]).

إن علاقة المسيحية بالإسلام في العراق لم تكن علاقة عابرة أو طارئه بل هي علاقه وجود وتاريخ وحضارة، فالأعراف الاسلامية تدخل بكل حمولتها إلى الكنيسة ، فقراءة سورة الفاتحة وانزال (حنه) إلى قبرها كان بمساعدة (سعدون) المسلم ، ولعل هذا مصداق قول القائل (الدين لله والوطن للجميع) ، فالوطن يضم جميع أبنائه تحت خيمته بغض النظر عن انتماءاتهم القومية والدينية والطائفية .

ومن البرامج السردية في هذا النص الذي يدلل على اثبات الحضور الهوياتي في التمثيل المجتمعي هو صوره أبي مها وجاره أبي محمد ، فجاء ذلك على لسان (مها):

(قال لنا إن ابا محمد اعتذر منه وهما يتعانقان وكاد يذرف دمعه، فطبطب على كتفه قائلا :(شنو ها الحجي؟ انت شنو ذنبك ؟ فرد عليه ابو مها " ما درنا بالنا عليكم ابو مها .ما درنا بالنا عليكم. وانتو المفروض أمانة بركبتنا " قال أبي له " إحنا ما درنا بالنا عل العراق... كلنا")([14]) .

إن الشعور بمسؤولية الجميع ازاء ما يحدث في العراق إنما هو بحد ذاته هويه وطنية متفردة تنقد ذاتها ولا تتهرب من مسؤولياتها التاريخية ، فالشعور بالذنب اتجاه الآخر المسيحي إنما هو شعور ينبع من تعاليم الدين الحنيف مصدقا لقول رسول الله جارك ثم جارك ... ومن التقاليد العربية الأصيلة فضلا عن علاقة الود الاجتماعي بين أبناء الحي الواحد ، فالهوية الوطنية تمثلت في قول أبي مها (احنا ما درنا بالنا عالعراق ..كلنا) فالعراق هو الخيمة التي يحتمي بها كل العراقيين بغض النظر عن انتماءاتهم المختلفة.

أما تمثلات الأمر الثاني في إثبات الهوية الوطنية للمسيحين العراقيين فيتمثل في إثبات الحق التاريخي للوجود المسيحي على الأرض العراقية ، وقد ظهر ذلك في الحوار الذي دار بين (مها) و(يوسف) اذ ترى (مها) أن:

(" الاسلام ميردون... علمود يظل البلد بس الهم" ليجيب (يوسف) قائلا:" شنو الهم ؟ البلد بلد الكل ، وبلدنا وبلد أجدادنا ، احنا قبل غيرنا . التاريخ يثبت ... من زمن دقناووس من الكلدانيين للعباسيين للعثمانيين وتأسيس الدولة العراقية ، المتاحف تشهد ... اذا مو بلدنا لعد بلد منو ؟ ما تقيلي؟)([15]) ، فيوسف) يستعرض التاريخ مدللا على الوجود المسيحي في العراق ليثبت أحقية هذا المكون الأساس في الوجود عل هذه الارض ، وأنهم غير طارئين ، وعليهم الدفاع عن وجودهم لا الهزيمة منه

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

والهجرة إلى الخارج ، فالهوية المسيحية من الهويات العراقية التي ساهمت في نسج الهوية الوطنية وهي مكون أساس وجزء فاعل وعليها مسؤولية بناء الدولة ولا سيما أن هذه الدولة تعيش مرحلة التحول والانتقال إلى التجربة الديموقراطية وهذا ما جاء في حواره اللاحق مع (مها).

ومن الصور الاخرى التي وظفها الروائي سنان انطوان في اثبات أحقية الهوية المسيحية في الوجود على الأرض العراقية ما جاء على لسان (مها) في لقاء مع إحدى الفضائيات إذ تقول :

(... احنا موجودين هوني صارلنا قرون. وخلي يسمعون الناس. التاريخ يشهد وحتى الآثار تشهد . اديرتنا وآثارنا موجودة. ومو بس بالشمال بكل مكان بالعراق ، حتى بالنجف اكو دير واثار وكنائس وبكربلا وبالناصريه اكو اديره) ([16]) ، فإذا كان يوسف في النص السابق استعرض الوجود المسيحي على المستوى العمودي المتمثل بالزمن ، فان (مها) تستعرض الوجود المسيحي على مساحة الوطن من الشمال إلى الجنوب مرورا بالنجف وكربلاء ، لعل القارئ والمتتبع لمسيرة (مها) في الرواية يستعرض هذا التحول الكبير في الموقف من الوطن ، فبعد الانهزامية نجد الثبات والدفاع عن الوجود المسيحي في العراق ولا سيما أن هذا الموقف جاء بعد حادثة كنيسة سفينة النجاة ، فعادت لهذه الشخصية صحوتها الوطنية ولذا باتت تدافع عن هذا الوجود الذي يستمد من عمق التاريخ وفي كل بقاع الارض العراقية .

إن الوجود المسيحي في العراق هو وجود متجذر في عمق المجتمع العراقي وأصالته ، وطقوسه وتقاليده هي جزء من طقوس الوطن الأم وثقافته ، وتاريخ الوجود المسيحي هو تاريخ العراق ذاته ، ولا يمكن لأحد أن ينكر هذا الوجود لا مجتمعياً ولا تاريخياً.

الهوية السياسية أو الحزبية.

سجلت هذه الهوية حضورا في الرواية لكون الانتماءات السياسية لم تكن ثيمتها الأساس بيد أنها جاءت عرضاً من خلال حديث يوسف عن اخيه الثالث (إلياس) ذلك الشاب الذي كان يناقش وينتقد كل شيء حتى سميَّ (" عريضي" أو سجينة خاصرة")([17]) للسبب المتقدم كذلك لم يتفاجئ (يوسف) حينما عرف أن (إلياس تورط بالسياسة واصبح شيوعيا) ([18]) لكنه بعد وصول نظام البعث إلى السلطة وما فعله في الأحزاب السياسية العراقية آنذاك:

(ترك السياسية بعد سنوات طويلة في السجن ، لكنهم ظلوا يراقبونه ويلاحقونه)([19]) ،إلا أنه عاد إلى السجن بفعل تقرير كتبه أحد العراقيين عنه حينما كان يعمل مستشارا قانونيا في شركة يوغسلافية بدعوى الرشوة (وكلفة التقرير ثلاث سنوات) ([20]) لكن السجن لم يُضعف من عزيمته بل أتعب عقله:

(كان يخرج من البيت ليتمشى عصرا كما اعتاد وكان أحيانا يضيع ، بدأت زوجته تصر على أن تمشي معه . غافلها ذات يوم عام 1999 وخرج بالبجامة عندما كانت نائمة ولم يعد... ثم وجدوة بعد أسبوع في الطب العدلي. كانت الجثة قد وجدت في زقاق في شارع الرشيد)([21])، فإلياس) مصاب بمرض الزهايمر الذي فتك بعقلة لينسف كل ما حفظته الذاكرة من ملايين المعلومات عبر رحلة حياتية طويلة ليهيم على وجه متوجها إلى شارع الرشيد (إنه كان يحوم في المنطقة ، ولم يفهم أحد منه ما الذي كان يريده أو يبحث عنه) ([22]) ولم يتعرف علية الناس لأنه لم يحمل هوية تُعرف به ، (وفي اليوم الثالث جاء احد أصدقائه القدامى ليقدم التعازي وبعد أن سأل عن ظروف حياته ... قالو له عن الشارع الذي مات فيه ، فأدمعت عيناه وقال:(شوف سبحان الله جان أكو هناك بيت ولد جانت خليتنا تجتمع بيه أيام العمل السري) ([23]) على الرغم من وطأة المرض الذي تعرض له إلياس وهو الزهايمر إلا أنه لم يتمكن من الفتك بهويته الايدولوجية وهو انتماؤه للحزب الشيوعي، وقد خطأ الناس حينما ظنوا أن الرجل الذي كان يحوم في شارع الرشيد لا يمتلك هويه ، نعم أنه لا يمتلك بطاقه ورقيه بيد أنه يمتلك هويه حافظ عليها ودفع من أجلها سنين طويله من حياته لينهي هذه الحياة في البحث عن مكان ولادتها في قلبه، فقضى وهو يستنشق عبير ذلك المكان من

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

دون أن يتعرف عليه. فـ(إلياس) احتفظ بهويته الايدولوجية السياسية في زوايا الفكر البعيدة ليحصنها من براثن هذا المرض الفتاك ، فهذا الانتماء الهوياتي وإن كان حزبيا – ربما يكون عارضا عند بعض الناس – كان أصيلا ومنحدرا من عمق وجود إلياس الانساني ، دافع عنه وحافظ عليه وهو في أحلك الظروف.

الصراع الهوياتي في رواية (يا مريم)

سبق وان ذهبنا إلى أن الثيمة الرئيسة في هذه الرواية هي الصراع الهوياتي ولا سيما بين الهوية الوطنية والهوية الدينية ، وعلى هذين الأمرين سنقصر الحديث في هذه الوقفة النقدية التحليلية ، وقد تجلى هذه الصراع في أشكال شتى أكثرها حضورا يتمثل في نمطين: الاول صراع بين ديانتين مختلفتين من خلال الانتماء الاجتماعي مثال ذلك (مها) المسيحية و أفراد المجتمع من المسلمين ، أما النمط الآخر فيتمثل بين شخصيتين تنتميان إلى الديانة نفسها لكنهما يفترقان في وجهات النظر ازاء الأحداث والمواقف التي تحدث في البلاد ، وسنقف أولا عند النمط الأول.

صراع الهويات الدينية.

تمثل هذا الصراع وبشكل كبير بين (مها) المسيحية العراقية ومحيطها المسلم ومثال ذلك في أحد المواقف التي تعرضت لها وهي تراجع أحد الدوائر الحكومية والحديث على لسانها:

(قال لي أحد الموظفين ذات يوم وهو يقرا استمارة ملأتها بالمعلومات الشخصية لأكمل معاملة معلقا على اسم والدي " اسم جورج أجنبي مو ؟" فاجبته بحزم :" لا مو أجنبي ، عراقي " شلون مو أجنبي ؟ مثل جورج بوش " " لا مثل جورج وسوف ... وجورج قرداحي ") وبعد أن ختم الاستمارة علق قائلا : (يعني قحط أسامي؟ شوفولكم أسامي عربية) . ([24])

مما لا شك فيه أن هذه الحوادث تولد في نفس الآخر المختلف دينياً شرخا كبيرا حينما يشعر بغربة وهو بين أحضان وطنه ، وهو يتعرض لسخرية من قبل أبناء مجتمعة ليس لسبب إلا لكونه ينتمي إلى ديانة أخرى ، فالمسيحي العراقي الذي هاجر إلى الدول الغربية لا يمكننا أن نحمله وحده مسؤولية تخليه عن وطنه أو عن هويته الوطنية ولوذه بهويته الدينية التي تمثل له قارب نجاة بحكم شيوع هذه الديانة في الجانب الشمالي والغربي من الوطن العربي، فوجد الفاتيكان بوصفها المرجع الأول للمسيحية في العالم ونشاطه المؤثر على الساحة الدولية ، كل ذلك زرع في نفوس المسيحين أن ثمة بديلاً عن هويتهم الوطنية ولاسيما حينما شعروا أن الحكومة الوطنية عاجزة عن حماية ممتلكاتهم وأموالهم بل حتى أنفسهم وأولادهم ، إلا أن هذه الأمور كلها تتقهقر أمام الارادة الصلبة التي تسلح بها من بقيَّ منهم في أسوار الوطن وتحت خيمته بل شرعوا في الدفاع عنه من خلال فصائل مسلحه تحت خيمة الدولة بعد أخذ مشروعيتها من دعوى الجهاد التي أصدرتها المرجعية الشيعية في النجف.

إن ارتباط اسم (جورج) بـ (جورج بوش) هو أمر في غاية البداهة، لكون جورج بوش قد استباح العراق ومقدراته الاقتصادية والبشرية والعسكرية عام 1991 بعد دخول الكويت من قبل صدام فعَلِق هذا الاسم بالذاكرة العراقية طوال سنوات كثيرة ، فهو رمز الشر عند العراقيين جميعاً، فمحنة هذا البلد قد ارتبطت بهذا الاسم واسماء أخرى ، فالعراقيون يستشعرون هذا الالم حتى في أغانيهم، فارتباط الحزن بالذاكرة العراقية هو ظاهرة عامة ومتأصلة فيها.

أما دلالة جورج وسوف فقد ارتبطت بدلالة الطرب وكذلك جورج قرداحي لم تسجل حضورا مقارنة بما سجلته دلالة جورج بوش الممزوجة بالألم والمعاناة في ذاكرة الشعب العراقي لأنهما ظهرا والناس في العراق يمرون بظروف قاسية جدا ، أما ظروف حرب أو حصار أو صراع طائفي وغير ذلك ، وربما نجد العذر لهذا المواطن البسيط في دوائر الدولة وإن كان غير مقبولا ، إلا أن الأمر يختلف عندما نجد ذلك يحدث في الحرم الجامعي ، فأحد زملاء (مها) وهي طالبة في كلية الطب في جامعة بغداد يسألها:

("هاي انتو هم تاكلون كليجه؟ .. وردت علية ... اي ، ناكل كليجه ونشرب جاي وماي مثلكم . قابل إحنا جايين من الفضاء

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

الخارجي!" ولكنه لم يكتف فسألني عن رأس السنة "آني سمعت انتو براس السنه من تصير ثنعش بالليل القس يطفي الضوه ويكول لكل واحد يبوس البنية اللي واكفه يمه. صدك ؟) ([25]).

في النص المقدم حاول القاص سنان انطوان أن يؤشر حالات عده منها: ضحالة ثقافة الطالب الجامعي اليوم مقارنة بحالته أيام السبعينات وقبلها وبعدها ، إذ كان الوعي الثقافي في قمة عطائه والنص يفيض بهذه الثقافة وهي حالة تستشري في الوسط الجامعي لأسباب كثيرة جدا بعضها يتعلق بالدولة والبعض الآخر يتعلق بالطالب ذاته. والأمر الآخر هو أن هذا الفكر استباح الوسط الجامعي فكيف الحال به وهو بين الأوساط الاجتماعية ذات الثقافة البسيطة التي تأتمر بالثقافة الجمعية متنازلة عن وعيها وفكرها الذي كرمه الله تعالى إياها من دون خلقه فهي تتبع ما يقوله الجهال من بعض المتصدين للمنابر الخطابية والفاسدين من السياسيين والمنتفعين من تجهل المجتمع لضمان بقائهم في السلطة لسرقة مقدرات البلاد.

إن ثقافة (الإنتو) و(الإحنه) هي التي قسمت ظهر البلاد والعباد، ولولا هذه الثقافة لم تظهر الفتنة الطائفية ، ولولا هذه الثقافة لم يصل البلد ما وصل اليه من حالات التشرذم قبل احداث 2014/6/9 وما رافقها من تحديات دفع فيها الوطن خيرة أبنائه من المسلمين والمسيحيين لإعادة الأمور إلى نصابها.

إن ضغوط الثقافات الهدامة التي استهدفت المجتمع العراقي في مقتل هي التي كانت وراء غياب الوعي الثقافي في المؤسسة الأكاديمية والتي أشار إليها الروائي في البرنامج السردي المتقدم ، اذ نجد الهويات الفرعية تمتلك السطوة على الهوية الوطنية، بل قهرتها في مواطن كثيرة ولاسيما عندما تكون التغذية الفكرية لتلك الانتماءات تغذية خاطئة وهدامة ولا تعود بمرجعياتها إلى المنابع الحقيقية لتلك الهويات ، فضلا عن غياب الوعي الثقافي والكشف الفكري عن حقيقة ما يحدث في البلاد.

لم تكن صفحات التواصل الاجتماعي (الفيسبوك) بعيدة عن هذا الصراع وقد تمثل حول ثيمة واحدة وهي أن المسيحين: (يساعدون الاحتلال ويتعاونون معه لان البعض منهم عمل مع الجيش الامريكي) ([26]) ولم يكن هذا السبب الوحيد فقط فقد غفل الروائي عما هو يمثل عامل اشتراك بين الأمريكان والمسيحين وهو أنهما يشتركان في ديانة واحدة ، وربما هذا الاشتراك يجعل من المسيحي متعاطفاً مع الأمريكي بحسب ما يعتقد الآخر المخالف ، إلا إن (مها) كان لها من الأدوات ما يجعلها قادرة على رد هذه التهم وسبب ذلك هو موقف الآخر المختلف ، فنظام البعث ما كان له أن يسقط لولا تدخل الدول الغربية التي تدين بالمسيحية في أغلبها من امريكيين وبريطانيين وفرنسيين وغيرهم وكل من جاء مع التدخل الامريكي صنف على أنه جاء به الاحتلال ،(مها) ترى وهي حقيقة:

(أن السياسيين العراقيين الذين طبلوا للغزو ودعوا الأمريكان للقدوم إلى العراق وعملوا مع الاحتلال لسنوات طويلة كانوا مسلمين ...ألم تأت معظم النخب السياسية مع الاحتلال؟ وكل هذه الاحزاب الدينية والطائفية ألم تعمل مع الاحتلال ؟ هنالك من تدعمه ايران والسعودية وتركيا ، لكن من يدعمنا نحن؟) ([27]) تحاول (مها) رد التهمه باتهام مماثل يساندها ويقوي من حجتها وبحسب الوقائع على الأرض فأغلب الأحزاب السياسية طبلت لهذا الاحتلال بل دعت الامريكان لتخليص الشعب من الحكم الدكتاتوري البعثي بما فيها الأحزاب الاسلامية ، ولذا فتهمة التواطئ مع المحتل تصدق على أغلب الجهات السياسية التي قبضت على زمام الأمور بُعيْده سقوط النظام فهي تهمة تشمل الجميع . في النص المتقدم تذكر (مها) أمرا جديدا طرأ على الساحة العراقية وهو تشرذم الطيف السياسي العراقي بين دول اقليمية لتكون مرجعهم في ممارسة طقوس السلطة بعيدا عن الهوية الوطنية ، إذ أنتج النظام السياسي الجديد في العراق ولاءات اقليمية تعتمد الانتماء الديني والأيديولوجي ، فهذه المجاميع السياسية تنفذ أجندات اقليمية ذات مرجعيات طائفية تدّعي دعمها لفريق طائفي على حساب آخر في العراق بدعوى نصرة المذهب ، فانحاز الشيعة إلى ايران وانشطر السنة بين

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

السعودية وتركيا وقطر، وفي ظل كل هذا الصراع الطائفي يغيب النفس الوطني وتتراجع الهوية الوطنية .

التنازع الهوياتي المؤتلف

ونريد به أن يكون الصراع على الهوية بين أفراد ذات الانتماء الديني الواحد، وغالبا ما تكون الهوية الوطنية هي المتنازع عليها كما هو الحال في رواية (يا مريم) متن الدراسة وسوف يقتصر الحديث على الحوارات التي درت بين (يوسف) و(مها) مع الإشارة إلى ما يتعلق بالسياقات الحافة بتلك المشاهد السردية.

إن توكيل القاص سنان أنطوان إدارة مهمة السرد في الرواية لشخصيتين تنتميان إلى هوية دينية واحدة لهو توظيف موفق وصائب ، فالروائي ناقش ثيمة تنازع الهوية من خلال هاتين الشخصيتين نفسيهما كونهما يفترقان في فهمهما لمفهوم الهوية الوطنية والانتماء الوطني ، اذ أوجد سنان أنطوان لكليهما أجواءً مختلفة وكأني به يريد توصيل رسالة ما تخص هذه البلد فحواها أن مسألة الانتماء للوطن هي مسألة لا تطرد حالها حال المسائل الكبرى، اذ لا يمكن أن نعمم أن المسلمين كلهم يؤمنون بالوهابية وما انتجتها كونها تنتمي إلى الحضيرة الإسلامية ، كذلك الأمر مع المسيحيين فلا يمكن أن نعمم عليهم تخليهم عن الوطن في أيام محنته ، فمنهم من بقى فيه حتى استشهد على ترابه ومنهم من هاجر وفي قلبه كل ذكريات ذلك الوطن .

لم تكن شخصية (يوسف) الشخصية الرئيسة في الرواية شخصية منتمية إلى الديانة المسيحية إلا من خلال انتمائها الفطري وطقوسها وتقاليدها بيد أنها كانت تعيش الوعي الوطني وتذوب في الهوية الوطنية ، إزاء حالات التطرف التي يستشعرها من أبناء ديانته، فقد تعامل مع كل الظروف التي يمر بها البلد على أنها ظروف طارئة وعامه يتعرض لها كل أبناء الشعب على حد سواء بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية. تقول (مها) وهي تصف اختطاف خالها :

(كانت جدتي تردد في العزاء وهي تبكي بأنهم اختطفوه وقتلوه لأنه مسيحي . لكن يوسف –كعادته- فسر الحادثة تفسيرا موضوعياً ... قال: انهم اختطفوه لان كان صاحب محل أزياء وخمنو بأن عائلته ستتمكن من تدبير المبلغ . وقال: إن الخطف كان قد أصبح آفة تطال الجميع بغض النظر عن الدين والطائفة ...) ([28]) هذه هي ملامح شخصية يوسف .

أما (مها) الشخصية الرئيسة الثانية في الرواية فقد مثلت الجيل الجديد الذي يتأثر بكل شيء ابتداء بأبناء المجتمع البسطاء مرورا بزملاء الدراسة وصولا الى أصدقاء التواصل الاجتماعي وبوجود ظرف ضاغط هو الأحداث التي يمر بها البلد ، كل هذه الأمور جعلت من هذه الشخصية شخصية عدائية للآخر ناقمة على انتمائها الوطني وهويتها الوطنية:

(آني لا امتلك زمنا سعيدا أحن إلية . زمني السعيد لم يكن قد ولد بعد. ربما أكون سعيدة هناك ، بعيدا عن العراق بعيدا عن الموت والمفخخات وكل هذا الحقد الذي صار يسري في الشرايين) ([29]) بل وصلت في لحظات يأسها إلى حد العداء للآخر ففي مناجاتها ليسوع تقول :

(سامحني يا يسوع . أعرف بأنك قلت " احبو اعدائكم" لكنني لا استطيع أن أُحبهم لا أستطيع . لا افهمهم ولا استطيع أن ألجم الحقد والتقزز للذين اشعر بهما كثيرا). ([30])

إن قارئ هذين المشهدين يستشعر مدى العداء والحقد الذي تكنه (مها) للآخر المخالف لها والذي يمثل أغلب الطيف المجتمعي العراقي ، ومن عمق هاتين الشخصيتين بمرجعياتهما ومشاعرهما اتجاه الوطن و الآخر سنقرأ المشاهد التي دار بينها.

لعل أول بوادر هذا الصراع نجده في حادثة اصدار القضاء العراقي الحكم بإعدام طارق عزيز ، وفي خضم هذا الحديث عن هذا الموضوع سأل (لؤي) زوج (مها) (يوسف) عن رأيه فأجابه:

(بأن هذه المحاكمات فيها تخبط منذ البداية وأنها فاقدة للشرعية ، لأنها شُكلت تحت الاحتلال ، وكان يجب الانتظار وعدم التسرع... طارق عزيز كان مشتركاً مع الآخرين وكان ينظر للبعثين

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

وما قامو به .سألتني مها بنبره حاده بعض الشئ " يعني مو قيعدمونه لأنه مسيحي ؟ " فقلت : "عيني الموضوع ، أعقد من مسيحي ومسلم ن موضوع سياسة ومصالح ، مو دين ") ([31])

يحاول يوسف أن ينزع من فكر (مها) اصدار حكم الإعدام لم يكن بدوافع انتقامية دينية إما اعتمادا على مبررات سياسية وقضائية و(مها) من جانبها تحاول بكل ما أُتت به من قوة حجاجية أن تجعل من مسيحية طارق عزيز سبباً لإصدار حكم الإعدام:

(" لو كان من جماعتهم ما عدموه . بس طبعا . لأنه مسيحي . دمه رخيص ") ([32]) إلا أن إجابة (يوسف) كانت أسرع مما توقعت (مها) (" ليش اللي انعدموا قبله شكانو ؟ كليتهم اسلام . هذا اول واخر مسيحي ينحكم بالإعدام ") ([33]) ومما لاشك فيه أن جواب (يوسف) كان شافيا لتطابقه مع الوقائع ، إلا أن (مها) كانت تُصر على أن الاستهداف كان دينيا:

(" عيني قيعدمونا بكل مكان بلا محكمه وما حد حكى . الكنائس قتنحرق والناس قتتهجر وقيذبحون بينا يمنه يسره "" مو بس كانيس قتنحرق بنتي . الجوامع اللي انحرقت أكثر بكثير ، الإسلام اللي انقتلو عشرات الالاف "" أي يروحون يقتلون بعضهم بعض ، ويخلونا بحالنا . احنه شعلينا ؟") ([34])

يتضح من النص المتقدم أن الصراع الهوياتي على أشده بين الهوية الدينية المتمثل بحوار (مها) وكله يتركز على أن الانتماء المسيحي لطارق عزيز هو الذي كان وراء الحكم عليه بالإعدام ، والهوية الوطنية المتمثلة بـ (يوسف) وعرضه لأسباب هذا الحكم إذ حصرها بالأسباب السياسية والقضائية ، وهو بذلك يدافع عن الهوية الوطنية التي تحاول (مها) عنوة تشويهها بسبب هذا الحكم ، ولعل الحجج التي عرضها (يوسف) كانت غير قابلة للرد لاعتمادها على الوقائع ، ولعل من جملة ذلك هو أن جل الذين صدر بحقهم حكم الإعدام كانوا من مسلمين شيعة وسنة ، وإن ما تم استهدافه من أماكن العبادة الإسلامية هو أكثر بكثير من أماكن العبادة المسحية .

لم تكتف (مها) بمهاجمة السلطات السياسة في ذلك الحوار بل انتقلت إلى مهاجمة الديانة الإسلامية ، لكونها مرجعية هؤلاء اذ تقول :

(هو دين انتشر بالسف . شتتوقع يعني ؟) ([35]) إلا أن (يوسف) بمرجعياته الثقافية يرد على استفهامات (مها) الإنكارية (ليش الدين المسيحي شلون انتشر ؟ بالحكي وبالعيني واغاتي ؟ لو مو هذا الامبراطور الروماني ... اللي صار مسيحي ما كان انتشر بسرعه . وبعدين لمن كانو يدخلون مدينة . اللي ميصير مسيحي ينقص راسو ، لا جزيه ولاهم يحزنون .الحروب الصليبية ... انذبحو بيها عشرين مليون بماركة الكنيسة). ([36])

إن دفاع (يوسف) عن الدين الإسلامي لم يكن بدوافع دينية لكونه مخالفاً له بل هو من باب تبصير الآخرين بالحقائق التي اجتهد كثير من المتضررين على اخفائها عن الناس ، فاتهامات (مها) للدين الإسلامي بأنه دين قام بحد السيف لم ينفه (يوسف) بل حاول استحضار تاريخ انتشار الديانة المسيحية وآليات ذلك الانتشار وكم كانت الضحايا التي دفعت ثمنا لذلك التبشير ، ونرى أن ذلك كله جاء في اطار الدفاع عن الهوية الوطنية وفي الوقت ذاته محاولته دحر انتماءات (مها) الدينية ، واستكمالا للحوار تحاول (مها) أن تصل إلى نتيجة مفادها أن:

(الإسلام ميريدونا ، بكل بساطه ، علمود يظل البلد بس الهم) ([37]) إلا أن هذا الأمر اغاض يوسف كثيرا لأنه كان ينطلق من منطلقات دينية لا أساس لها من الحقيقة فينتفض قائلا : (شنو إلهم ؟ البلد بلد الكل ، وبلدنا وبلد اجدادنا ...) ([38]) .

إن ايمان (يوسف) بهويته الوطنية هو الذي يمنحه هذه القوه والرد الصارم إزاء تساؤلات (مها) ذات الابعاد الدينية في مجملها ولغرض تدعيم قوة آرائها تستعير توصيف الجماعات الإرهابية للمسيحين (... هسه صرنا كفار وذميين) ([39]) الا أن (يوسف) يرد عليها بهدوء وسكينة:

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

(" لا كفار ولا بطيخ . هسه بس تستقر الأمور ، الخير يرجع شوية شوية ..." " عيني اكو بلدان وشعوب مرت بأوضاع اسوء وبعدين هم استقرت الأمور . هاي حركة التاريخ ")26([40])

لم يدخر (يوسف) جهداً في التخفيف من وطأة الظروف التي مرت على (مها) الفتاة الشابة التي لا تملك من الخبرة الا بعدد سنوات عمرها الغض ، ولذا يتحسس القارئ ثقل المسؤولية الملقاة على عاتق (يوسف) بالحفاظ على هوية المسيحين العراقيين الوطنية ، فـ(يوسف) عوّل كثيرا على ثقافته وتراكمه المعرفي الذي يختزنه في ذاكرته معززا كل ذلك بتجاربه الحياتية التي قضاها في بلده ، فحركة التاريخ تقتضي أن تمر الشعوب والبلدان بهذه التجارب وربما المحن لتهدأ بعد ذلك وتعود الحياة إلى مجاريها مرة أخرى.

انتزاع الهوية/ التنازع الهوياتي المختلف

على الرغم من أن الروائي سنان انطوان قد أخلص لموضوع الرواية في جُل مفاصلها وبيئاتها إذ تناول موضوعاً يعود إلى اربعينيات القرن الماضي أو خمسينياته 1950 وفي هذا العام قامت السلطات في العراق ودول عربية أخرى بتهجير اليهود إلى إسرائيل، وقد بدا لنا أن الروائي لم يخرج عن الغاية التي رسمها للخطوط العامة للمنفي ، وذلك كون تلك الحوارات تدخل في الموضوع ذاته ، ومن ثيمات الرواية هي الهجرة إلى خارج العراق ، ونرى أن موضوعي الهجرة والهوية لا يفترقان ومرتبطان بعضهما البعض ، إلا أن المفارقة بين هجرة اليهود وهجرة المسيحين إلى خارج العراق تبدو كبيرة وربما يصلان إلى حد التعارض في الدلالة الظاهرية على أقل تقدير .

مما لا شك فيه أن النظام السياسي في البلاد يتحمل أسباب حدوث تلك الهجرات سواء التي حدثت عام 1950 أو التي حدثت بعد أحداث 2003 و2014 على اختلاف آليات حدوثها ،فاذا كان النظام السياسي في العراق في عام 1950 قد شرعن تهجير اليهود قسراً باستصدار قانون إسقاط الجنسية عنهم وتجميد ممتلكاتهم وربما مصادرتها ليس لسبب إلا لكونهم ينتمون للديانة اليهودية التي تنتمي إليها اسرائيل، الا أن الأمر الآخر يختلف مع هجرة المسيحين بعد احداث 2003 ، لأن النظام السياسي لم يسعَ إلى ذلك بل أنه أخفق في حماية المسيحين من استهداف المجاميع الارهابية كما فشل في حماية الطوائف الأخرى في كامل الدولة العراقية ، ولنقف على المشهد السردي الذي استجلبه الروائي سنان انطوان عن عائلة أحد اصدقاء (يوسف) وهو العراقي اليهودي (نسيم حزقيل) :

(لم يكن نسيم يبدي اي قلق ، حتى في الأشهر الأخيرة قبل رحيلة . عندها كان يوسف وسالم يستفسران منه ، خصوصا أن الاشاعات بدأت تدور أن بعض اليهود بدأوا بالهجرة والهرب) ([41])

لقد استقبل (نسيم) هذا الأمر باللامبالاة والتسفيه ، لأنه غير منطقي على الأقل وليس من المعقول أن يهجر اليهود من بلدهم العراق لكون اسرائيل يهودية وحتى والد نسيم (لم يفكر بها (الهجرة)) ([42]) وكلاهما متمسك بهويته الوطنية على حساب هويتهم الدينية التي مثلت في ذلك الوقت اشكالية مجتمعية ليست فقط في العراق وإنما في الوطن العربي بل العالمي إذ هاجر أغلب اليهود إلى فلسطين لأسباب بعضها قهرية كما حدث مع اليهود العرب وأخرى اغرائية مثلما حدث مع يهود العالم .

لم يدر بخلد (نسيم) وعائلته أن يتخلى عنهم البلد الذي عاشوا فيه ، فوالد نسيم لم يفكر بالهجرة (حتى بعد اصدار قانون اسقاط الجنسية عن اليهود عام 1950) ([43]).

إن محاولات النظام السياسي في العراق آنذاك في انتزاع الهوية الوطنية من (نسيم) وعائلته لم يتقبلها والد نسيم في دواخله وكان دائما ما يمني نفسه بالقول:

(إنها غيمة عابرة وإنهم سيظلون في العراق) ([44]).

لم تكن الدولة وحدها سببا في تهجير اليهود من العراق بل ساهم في ذلك الجهال من المجتمع فتمثل ذلك في عمليات النهب (الفرهود) الذي قام به هؤلاء إذ سلبوا ونهبوا ممتلكات اليهود في أماكن كثيرة من العراق ، وعلى الرغم من كل هذه الأمور إلا أن

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

عائلة (نسيم) لم تفقد تفاؤلها (فالفرهود أيضا كان مخيفا لكنه أصبح في خبر كان واستقرت الأمور بعدها . وبالرغم من بعض حوادث الاعتداء ، إلا أن الأمور ستستقر) ([45]) .

إن الاعتزاز بالهوية الوطنية والدفاع عنها من خلال مقاومة قانون اسقاط الجنسية أو مقاومة أحداث الفرهود كانا السبب الحقيقي في صمود العوائل اليهودية العراقية والتشبث بتراب الوطن ومائه ونخيله ، إلا أن هذا الاعتزاز وهذا الصمود لم يكن كافياً لبقاء اليهود العراقيين في بلدهم ، إذ كانت الهجمة أقوى منهم ، فتهجيرهم كان مخططاً دولياً كبيراً ارتبط بالدول الكبرى التي أوجدت اليهود في فلسطين ، فبدت بوادر الاستسلام على عائلة (نسيم حزقيل) (بدا نسيم مهموما ...كانت بشاشته قد هجرته ، واحتل وجهه وعينية وجوم عميق) ([46]) إذ بدأ يتحول تفاؤل (نسيم) وعائلته إلى تشاءم مطبق، لأن اجراءات النظام السياسي في طور التطبيق (قال نسيم إن أباه فُصل من عمله وتم تجميد أموال العائلة وممتلكاتها)([47]) ، إن اجراءات الدولة العراقية آنذاك لم تكن فقط لانتزاع الهوية الوطنية وجنسيتها من اليهود بل هي اجراءات من أجل انتزاع الحياة أيضا من طيف اجتماعي عريض في المجتمع العراقي ، فمحاربة النظام السياسي لليهود العراقيين ليس في وجودهم الواقعي ضمن رقعة الدولة العراقية بل هو يتمثل في سلب حياتهم أيضاً وذلك بوقف مصادر ديمومتها ، لتأت بعد هذه الخطوة خطوة أخرى وهي التخلي عن الجنسية العراقية قهراً (أبويا سجل أسامينا بالتسقيط وراح نروح لإسرائيل) ([48]) لم يكن هذا الأمر مقبولا حتى اصيب أصدقاء (نسيم) بالذهول:

(سأله يوسف "شوكت ترحون" فأجابه " يمكن بعد يومين ، ما اعرف " لم يستوعب يوسف كيف يمكن أن يحدث هذا بكل بساطة ، وسأله سؤالا لا جواب له " شلون هيجي ترحون ") ([49])

لقد تركت هجرة اليهود من العراق ندباً كبيراً في بنية المجتمع العراقي فقد كان الطيف الأكثر فعالية في الجانب الاقتصادي ، لكونهم القوه المالية الأكثر قدرة في العالم كله فهم يسيطرون على مقدرات العالم المالية ، ولو عدنا إلى أثر اليهود في الثقافة العراقية لوجدته ماثلاً ولاسيما في الثقافة العراقية ، فضلا عن كونهم جزءً من الفسيفساء العراقية التي عرف بها المجتمع العراقي اليوم.

لقد أسهم النظام السياسي في العراق في سلب الهوية الوطنية من اليهود على الرغم من تمسكهم بها ، فسلب الهوية كان بإرادة الدولة وقراراها السياسي فضلا عن السماح لمنظمات إرهابية بمهاجمة اليهود، أما هجرة المسيحين فقد اختلفت كثيرا وإن كانت الدولة سبباً فيها وقد تمثل ذلك في فشلها في حماية المسيحين من تكلم الجماعات بل أن فشلها في الحماية الشعب كله وليس المسيحين فقط .

النخلة الهوية

ترد النخلة في رواية (يا مريم) في صفحات كثيرة مثلت ظاهرة تستحق الوقوف ، ولا نرى أن توظيف الروائي للنخلة في مسيرة الحدث الروائي اعتباطاً بل نجده مقصودا لدواع تتعلق بثيمة الرواية الرئيسة وهي الهوية . ومما هو ليس بجديد القول : إن للنخلة حضوراً كبيراً في المرجعيات الثقافية والفكرية والدينية وهذا ما اشار الية القاص في الرواية :

(كانت النخلة تحتفظ بمكانة مقدسة ، فتوجد نقوش وصور تمثلها في هياكل بابل واشور وعلى جدران المعابد ومداخل المدن والعروش والتيجان ... كانت شريعة حمورابي تقضي بتغريم كل من يقطع نخلة) ([50]) ثم ذكر فضلها في الاسلام متمثلة في القران الكريم بسورة مريم عليها السلام (حيث تهز جذع النخلة كي تتساقط عليها ثمرا جنيا إلى وصف الجنة في القران ... إلى الحديث النبوي الذي يقول (بيت ليس فيه تمر جياع اهله) ([51]) .

إن رمزية النخلة من النصوص المتقدمة تدلل على مكانتها في الفكر الانساني بل هي عند الله سبحانه وتعالى سبباً في ديمومة الحياة ومصداق ذلك ما ورد في القران في سورة مريم وما ورد في الحديث النبوي (وبمرور الزمن اصبحت النخلة شبه مقدسة لدى يوسف ايضا لأنه مدين برزقه لها وللملايين من اخواتها)

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

([52]) (ولم يكن يوسف يعرف بأن اعداقا ... ستصبح مصدر رزقه وستطعمه طوال حياته ، ولم يكن يعرف بأن النخل الذي كان مقدساً عند العراقيين القدامى، لأنه كان مصدر الحياة وديمومتها سيرتفع عنده ايضا إلى منزله سامية) ([53]) .

إن علاقة (يوسف) بالنخلة هي علاقة وجود وحياة كعلاقته ببلدة العراق : (فأحوال النخل لا تختلف عن احوال البشر وعليها ما عليهم ، ولها ما لهم . الحروب تقطع رؤوس البشر والنخل) ([54]) فالمحنة واحدة وما يجري على العراقيين يجري على نخيله ، فكلاهما يقوم مقام الآخر ، وكلاهما هوية للآخر ، ويتسأل يوسف في خلده (هل هناك عراقي لا يحب النخل ؟ كيف؟ كنت اؤمن بأن من لا يحب النخل لا يحب الحياة أو الانسان . كم يشبه الانسان النخلة ...) ([55]) وكذلك (يوسف) كان نخلة شامخة في بلد يقاوم رياح الحقد والكراهية والفكر المتطرف كما تقاوم النخيل العواصف وما حدث لأبناء الشعب حدث أيضا للنخيل:

(استاذ حتى النخل صار بي سني وشيعي ... تدري شكد نخل مكصوص ومشلوع علمود الأمريكان يشوفون لو القناصة يشوفون ؟ حرام استاذ) ([56]) فالألم واحد والمأساة واحدة يتعرض لها العراق بأبنائه ونخيله فالاحتلال يعصف به كما يعصف به الإرهابيون فلا يفرقون بين البشر والنخيل وقد يُرى أن سيمائية /النخلة في هذه النصوص إنما هي معادل موضوعي لموضوع الهوية ، فمعوقات وجود الانسان العراقي هي ذاتها معوقات وجود النخل ، فالنخل هو الهوية الوطنية التي تستمد وجودها من العمق التاريخي والديني لهذه البلاد ، فالنخلة ترمز إلى النصر، والبركة والحياة والصمود والهوية . ثمة حديث خفي بين يوسف والنخلة وهو يناجي ذاته:

(لمحت سعف نخلتي البيت من بعيد وهما تنتصبان في حديقته الخلفية فبدتا وكأنما تحرسانه ، أنا ايضا أحرس البيت وذكرياته) ([57]) فالنخلة ويوسف كلاهما يحرسان البيت (العراق) وقد وقفا شامخين يذودان عنه وعن تاريخه المجيد ، فكلاهما راسخ بجذوره في هذه التربة المقدسة ، يستنشقان عبيرها ، فالنخلة عند (يوسف) (ليست ... محض نخلة ، بل حياة بأكملها ، متشابكة مع الأرض التي تحتها وكل ما فيها ...) ([58]) .

إن دلالة هذا التعلق بالنخلة من قبل (يوسف) إنما هو تعلق بالحياة وبالوطن ويدل في هذا الوقت ذاته على مدى ثبات الهوية الوطنية وقدرتها على مقاومة الهويات الأخرى التي تطرح نفسها بديلا عن الهوية الكبرى لكن رسوخها الأبدي في نفوس أبنائها هو الذي يضمن لها ديمومة البقاء بعيداً عن الفناء وإن ضعفت في فترات من الزمن .

يبدو لنا أن ثمة ارتباط بين النخلة وبين أحداث الرواية ومضمونها ، وربما تشي عتبتها الأولى عن تلك العلاقة ، لكن بشيء من التأمل ، فعلاقة مريم عليها السلام بالنخلة وثقها النص القرآني فضلا عن الانجيل الذي لا تعترف به الكنيسة والذي جاء ذكره في الرواية . ([59]) فكليهما يرمزان إلى الحياة ، فمريم عليها السلام تضع حملها نبي الله عيسى عليه السلام بوصفه نبياً هادياً وهو مصدر الحياة الكريمة التي تحفظ كرامة الانسان ووجوده ، فمهمة النخلة في ذلك الحدث العظيم لا تقل عن عيسى عليه السلام ، لكونها كان مصدر الحياة الوحيد الذي سخره سبحانه وتعالى لمريم عليها السلام ، وبذلك تكون ثمة علاقة جليلة بين مريم والنخلة فكلاهما كان شاهدا على حدوث الحدث العظيم ، وبما أن مريم عليها السلام هي ايقونة الديانة المسيحية والنخلة هي رمز الحياة عند العراقيين منذ آلاف السنين إلى اليوم بل أصبحت رمز العراق وايقنته الخالدة ، فثمة ارتباط قوي ومصيري بين المسيحية (مريم) والعراق (النخلة) والذي لا يمكن فك عراه مهما اجتهد الحاقدون ،لأنهما مرتبطان ارتباط وجود وكينونة ، فهوية مريم عليها السلام هي هوية العراق .

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

الخاتمة

توصل البحث الى جملة من النتائج يمكننا اجمال الأهم منها بالآتي:

- إن الثيمة الرئيسة التي قامت عليها رواية (يا مريم) هي معالجة ظاهرة استشرت في المجتمع العراقي بعد التحول السياسي الذي حدث في العراق بعد 2003 وبما يمكن ان نطلق علية أزمة الهوية الوطنية ، وصعود الهويات الفرعية .
- أشار القاص وبشكل لافت الى شيوع الصراع بين مكونات الهوية الوطنية ونريد بهذه المكونات تلك الهويات التي تشظت بعد التحول نتيجة للوضع السياسي الجديد ، الذي اعاد الحياة لتلك الهويات لغايات نفعية وشخصية .
- إن الصراع الهوياتي الذي اظهرته الرواية تعدي الصراع بين الهويات الفرعية الى صراع داخل الهوية الواحدة وهي الهوية الدينية المسحية ، فكان هذا الصراع هو قطب الرحى في الحدث السردي الروائي .
- لم تقتصر رسالة القاص في هذه الرواية على الصراع الأفقي بل نجده يتمثل الصراع العمودي ، وكان ذلك من خلال صراع الأجيال الذي تمثل بـ(يوسف) الرجل المسن و(مها) الفتاة الجامعية الشابة .
- حمّل القاص شخصيته الرئيسة (يوسف) من خلال عرضه لتاريخ حياته وتحولاتها تاريخ العراق وتحولاته ، وأعطى صورة جلية عن الانموذج الاسمى للهوية الوطنية في ذلك الوقت ، وقد تمثل ذلك الصداقة التي جمعته بصديقيه (سالم) المسلم و (نسيم) اليهودي .
- إن توظيف القاص لتاريخ الوجود المسيحي في العراق وعلى لسان كل من يوسف ومها كانت الغاية منه التنبيه لهذا الوجود الذي قد يجهله أو يتجاهله من يحاول اجبار المسيحيين على الهجرة من العراق لدواع دينية .
- وظف القاص النخلة بوصفها هوية للوجود العراقي وبوصفها سيمياء المقاومة ، فهي العراق مهما كثر اعداءه ، فالنخلة هي مصدر حياة العراقيين كما كانت مصدر حياة مريم عليها السلام .
- حاول القاص ان يلقي الضوء على لوحات مجتمعية بعضها مضيء مثل الألفة بين أبناء العراق الواحد وآخر مظلم وتمثل بسطحية التحصيل الثقافي ابان شيوع الهوية الطائفية والمذهبية .
- اظهر القاص التحول الكبير في موقف (مها) من كونها ناقمة وحاقدة على بلدها الى متمسكة ومدافعة عن وجودها وعن هويتها الوطنية بوصفها جزءا من هذا الشعب .
- حضور الصوت الوطني كان مواكباً لمجمل أحداث الرواية ، إذ كان حاضرا في أغلب البرامج السردية التي قامت عليها فلا نكاد نفارق هذا الصوت إلا نادرا .

روافد البحث

- رواية يا مريم ، سنان انطون ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط3 ، 2014 .
- الهوية ، حسن حنفي ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط1 ، القاهرة ، 2012 .
- ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، الشبكة العنكبوتية .

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

الهوامش

* - سنان أنطون شاعر وروائي وأكاديمي عراقي من مواليد بغداد عام 1967، أكمل البكالوريوس في جامعة بغداد ، قسم اللغة الإنكليزية عام 1990، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام 1991 وحصل فيها على شهادة الماجستير في الدراسات العربية من جامعة جورجتاون عام 1995 ، فيما حصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد بامتياز عام 2006 ، عمل أستاذا مساعدا في كلية دارتموث 2003-2005 وفي جامعة نيويورك عام 2005، ومما صدر له ديوان شعر بعنوان(موشور مبلل بالحروب) عن دار ميريت، القاهرة 2004 ، ورواية بعنوان (إعجام) عن دار الآداب عام 2004 ، أخرج فيلماً تسجيلياً بعنوان " حول العراق " عام 2004، ورواية و(حدها شجرة الرمان)عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عام 2010، وديوان شعر بعنوان(ليل واحد في كل المدن) عن دار الجمل، 2010 ، ورواية (يا مريم) عن مجزرة كنيسة النجاة و ترشحت لجائزة البوكر العربية للعام 2013 ووصلت للقائمة القصيرة و كانت عن دار الجمل في عام 2012 ، ورواية (فهرس) في بداية عام 2016 صدرت عن دار الجمل أيضًا ، ومما تُرجم من اعماله رواية (إعجام) من قبل الكاتب وربيكا جونسون ونشرتها دار سيتي لايتس في سان فرانسيسكو عام 2007، ومجموعة من أشعاره إلى الإنكليزية ونشرتها دار هاربر ماونتن برس عام 2007، وترجمت روايته "إعجام" ونشرت بالنرويجية والألمانية والبرتغالية والإيطالية. ينظر : ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، الشبكة العنكبوتية .

1 - ينظر : الهوية ، حسن حنفي ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط1 ، القاهرة ، 2012 ، 14-15 .

2 - رواية يا مريم ، 132 .

3 - الرواية ، 16 .

4 - الرواية ، 20 .

5 - الرواية ، 16 .

6 - الرواية ، 42 .

7 - الرواية ، 43 .

8 - الرواية ، 44 .

9 - الرواية ، 44 .

10 - الرواية ، 44.

11 - الرواية ، 43 .

12 - الرواية ، 78 .

13 - الرواية ، 79 .

14 - الرواية ، 121-122 .

15 - الرواية ، 26 .

16 - الرواية ، 155 .

17 - الرواية ، 52 .

18 - الرواية ، 52 .

19 - الرواية ، 52 .

20 - الرواية ، 52 .

21 - الرواية ، 53 .

22 - الرواية ، 53 .

23 - الرواية ، 53 .

24 - الرواية ، 111.

25 - الرواية ، 111-112 .

26 - الرواية ، 112 .

27 - الرواية ، 112 .

28 - الرواية ،115 .

29 - الرواية ، 140 .

30 - الرواية ،142 .

31 - الرواية ، 23 .

32 - الرواية ، 24 .

33 - الرواية ، 24 .

34 - الرواية ، 24-25 .

35 - الرواية ، 25 .

36 - الرواية ، 25 .

37 - الرواية ، 26 .

38 - الرواية ، 26 .

39 - الرواية ، 26 .

40 - الرواية ، 26 .

41 - الرواية ، 43 .

42 - الرواية ، 43 .

43 - الرواية ، 43 .

44 - الرواية ، 43 .

45 - الرواية ، 43 .

46 - الرواية ، 43 .

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22

47- الرواية ، 44 .

48 - الرواية ، 44 .

49 - الرواية ، 44 .

50 - الرواية ، 45 .

51 - الرواية ، 46 .

52 - الرواية ، 46 .

53 - الرواية ، 48 .

54 - الرواية ، 84 .

55 - الرواية ، 85 .

56 - الرواية ، 84 .

57 - الرواية ، 85 .

58 - الرواية ، 85 .

59 - ينظر : الرواية ، 97 .

DOI:10.18018/URUK/018-11/7-22